

الموت ، ولا مفرّ منه ، أنه مبعوث من بعده لحياة لا يدركها عدم
ولا بلحقتها فناء ؟

إذن فقيم فرح الإنسان بدورة الأيام ، واعتباطه بالتخلص
من عام لاستقبال عام ؟

ألا إن أعجب من هذا كله أن يراجع الإنسان نفسه ،
ويسألها فيم اعتباطها وفرحها من حيث يجب أن يتداخلها الأسي
وتلجّ عليها الحسرة من كل مكان ؟ !

الهم إنه يكلف بطول العمر ، ويكلف بقصر العمر ، وإنه
ليشفف بسطة الأيام ، ويشفف بنفاد ما بقي بين يديه من الأيام ! .
الهم إنه لا يستريح إلى هذا الحال ، إلا من كان به مسّ من جنون
أو مسّ من خبال !

ليس الانسان مجنوناً ولا مجتلاً ؛ بل إنه ليفكر فيحسن
التفكير ، ويقدر فيصيب التقدير ، ويدبر فيحكم التدبير . وإن
عقله الجبار ليأبى إلا أن يستدلّ عنق الطبيعة كل يوم . وهاهوذا
لا يفتأ يسخر لحاجات جوتها وماءها ، وأرضها وسماها ، بما لا يحتاج
معه إلى قيام دليل على صحة العقل وسلامة التفكير !

مالنا بعد هذا بذّ من التدبّس إلى قرارة النفس ، والتسلل
إلى ثنيتها ، علناً نصيب الوجه ونستخرج العلة في ذلك الذي
نحسبه في الحال !

ها نحن أولاء نتحرّى خطرات النفس ، ونتقرى خلجات
الحس ، فنسبر وراءها حيثما سارت ، ونسور معها كيفما دارت .
حتى إذا بلغت سائلتها القرار ، تمها لنا أن نروى عنها أصحّ الأنباء
وأصدق الأخبار .

هذا الانسان الماقل المفكّر المدبر ، يجرع حقاً أشدّ الجزع
لما ينطوي من أيام عمره ، ولقد يهنس حقاً لما يستقبل من
بقايا أيام الحياة . غير أنه لا يعقد أية صلة بين هاتين النزعتين
القويتين في نفسه ، فهذه تكون منه في حال ، وهذه تكون في
حال ، فليس تمت في الأمر طلب للحال . فاذا طليت بياناً فإليك
البيان :

إن علة العلل في كل هذا الذي ترى من تناقض الانسان ،
وخلاف زعات نفسه بعضها لبعض ، إنما هي فيما طبع عليه من

مطالع الأعوام

للأستاذ عبد العزيز البشري

جرت عادة الناس من الزمان البعيد أن يفرحوا أو يتكفوا
الفرح كلما طالتهم دورة الأيام بعام جديد . وكثير منهم من
يتخذ من مطلع العام عيداً ، يلبس فيه جديد الثياب ، ويحتفل
لهنئة الصحاب واستقبال المناء من الصحاب ، ويتفرغ من
كل عمل ليتوفر ومن يحمل من الأهل والولد على إصابة ما يهباً
لهم من اللذائذ والمتع ، وتقليب المطف فيما يتيسر من ألوان
النعم . كذلك جرت عادة الناس ، أو عادة أكثر الناس

ولو قد راجع المرء نفسه في هذا ، وراح يتحسس الأسباب
والعلل في ذلك الذي يكون منه في مطالع الأعوام ، فليت شعري
يم هو في غاية الأمر راجع ؟ . أترأه فرحاً بأنه طوى من عمره
عاماً ؟ . أم ترأه فرحاً بأنه سيفتشر من عمره عاماً ؟

وإن عجيباً دونه كل عجب أن هذا الانسان الأثر ، المتشبث
بأسباب الحياة ، مهما تذل وتوجع ، يفرح بطى صفحة من
حياته ، وقطع مرحلة من عمره ، فيدنو من الغاية المحتومة التي
ما ذكرها إلا مليء من ذكرها فرحاً ورعباً !

وإن عجيباً لا ينتهي منها عجب أن هذا الانسان الجبان
المنخلع القلب ، الذي لا يرى إن يقيناً وإن وهماً ، في كل نية من
ثنائا القيب ، وفي كل منعطف من منعطفات الدهر ، إلا ما يرتصد
لته ، ويتربص به الدوائر ، ويرميها ما أصحرت به الأيام بالوان
السكاره والمخاطر — اللهم إن عجيباً لا ينتهي منها عجب أن يفرح
هذا الانسان باستقبال كل هذا الذي يتوقع من أذى طارقات
الليال !

إذن فقيم فرح الانسان بدورة الأيام ، واعتباطه ذلك بالتخلص
من عام لاستقبال عام ؟

ليت شعري أترأه يضيق بالحياة ويرم بها ، ويسرّ كلما طوى
من كتابها صفحة ، واقترب من غايتها خطوة ؟ . اللهم إن الانسان
لأكلف بالحياة ، وأودّ لو تطرد به إلى غاية الزمان ، وإلى ما بعد
غاية الزمان ! . أليس أكبر عزائه في هذه الحياة إذا عرض ذكر

الأثرة وشدة الكلف بالنفس . فهذه الأثرة هي التي تدخل عليه الفرع لما فني من سني العمر ، وهذه الأثرة هي التي تدخل عليه السرور بما يستقبل من بقية أيام الحياة ، وإن شئت قلت بما يقبل على استهلاكه من بقايا أيام الحياة !

أما أن الأثرة هي التي تدخل عليه الجزع لما يتصرم من أيام العمر ، فيدنو به خطي إلى مهواه من القبر ، فذلك ما لا يحتاج إلى توجيه ولا إلى تعليل ، وأما أن هذه الأثرة نفسها هي التي تدخل عليه السرور بما يقبل على استهلاكه من بقايا أيام العمر . فذلك بأنه ما يبقى من حياته يوماً إلا أطمته أياماً ، ولا يطوى من عمره عاماً إلا بسطت بين يديه أعواماً : فالإنسان ، على إيمانه بالموت ، وجزمه بالألمهرب منه ، لا يفتأ يدافع الأجل كلما تقدم خطوة إلى الأجل ، وهكذا ، حتى لو قدر في الزمان أن يبسط في عمر إنسان إلى ألف عام ، لوسوس له تأميل الأثرة بعد المزيد ! وعلى هذا فمما يطور الإنسان من سنه ، ومهما يفن من عمره ، فإن ما خلا يكاد يسقطه من مساحة العمر بما يجيد له التأميل كل يوم من بسطة الزمان بين يديه ! فيعيش كذلك ما يعيش ، وكأنما يتمتع من بحر لحي ما لأنه من نفاذ !

وكذلك القول في تطامن الإنسان لمستقبل الأيام واستبشاره ، في غالب الأحيان ، بمقدسها ، وقلة احتفاله لما عسى أن يكون قد جن له من المكاه في ضباط الشيوب ، فإن هذه الأثرة نفسها لتأني إلا أن تطالمة بألوان التأميل ، فلا ينتظر له من واردات الليال إلا كل مشتته وكل جميل ! بل إنها لتدخل عليه أحسن المزاه بما سيلقى من الخير والعافية عما كان قد أصابه من الحية فيما سلف من الزمان !

فقد بان لك أن الأثرة في الإنسان هي علة الطل ، وهي مصدر ما يحسب عليه من خطأ في الحساب ومن خطل

وبعد ، فلو قدر أن الله أمكن للمرء من طبعه ، وهياً له أن يسوى منه ما شاء على ما يشاء . أفتراء يعتمد هذه الخلة فيه ، أعنى الأثرة ، فينتزعها من فطرته انتزاعاً ، فلا تعود تجدعه وتحتله ، ولا تزينه عن الواقع ولا تغفله ؟

لا شك في أنه إن فعل سلم تقديره ، واستقام له القياس ،

وأدرك الحقائق على ما هي عليه لا على ما يشتهي أن تكون ؛ لأن هذه الأثرة كثيراً ما تلبس المنى بالحقائق الواقعة . وقد تستدرج الإنسان إلى المطامع البعيدة بما يهي له من إجراء القياس ، في شأن نفسه ، على ما يقع من الأمور النادرة في شئون بعض الناس . وبهذا وبهذا تسيء تقديره ، وتفسد حكمه على الأشياء أياً إفساد . وأنت بعد خير بأن السعادة في هذه الدنيا لا ترجى بخير من الأصابة ، والتهدى إلى جوهر الحقائق ، وسلامة التقدير وصحة التدبير . وتلك الطرق الواضحة ، لا شك ، لأسعاد الحال ، وإدراك البتة من ميسور الآمال

ولكن ولكن إذا قدر هذا في الطبيعة ، ونهياً للإنسان ففعل ، فعلى أية صورة تُرى يتمثل له العيش في الدنيا ، وبأى شعور يتلقى آثار هذه الحياة ؟

إنك مهما تجتث من أصول هذه الأثرة الغروسة في طبيعة الإنسان ، فانه ، ولا بد ، يألم إذا دخل عليه ما يدعو إلى الألم . وهو ، لا بد ، يلتذ بما يصيب من المتع ، وإنه ليستريح إلى العافية ، وإنه ليفرح بما يصيب من النعم ، وإنه ليحزن إذا طرقته دواعيات الحزن ؛ وتلك أدنى مطالب الحس في الحيوان ، بله الإنسان

فلو قدرنا أن الإنسان قد استوى في عيشه إلى الحقائق الواقعة ، وأجرى حسابه في جميع أسبابه عليها ، فهل تراه يمدل ما يصيب في الدنيا من لذة ومتاع ، بما يعاني من شدائد وُبرح وأهوال وأوجاع ؟ . اللهم لا ! . على أنهما لو تكافأ فأضحى خارج الحساب صفرأ ، لأسمى التشبث بهذه الحياة من إحدى المعانيث !

على أنه الأمل ، أمل المعنى المتبلى في العافية ، وأمل المعانيث إن كان في الدنيا معافى ، في صعود الجد ، وفي إقبال الزمان بما تتطلع النفوس إليه وتهفوه — هو الذي يرجح كفة الربح ويشهى الينا الحياة ، ويضربنا بالحرص عليها آياً إغراء !

وما كانت هذه السنى فينا لتقوى وتستمكن ، وتستفحل وتستحصد ، لولا هذه الأثرة التي كُذلت لأوهابنا عصى الآمال ، وتسوى لنا في صورة الممكن ما نظمته الطبيعة في سلك المحال ! هذه الأثرة التي تنبينا عن كثير من الأشياء ، حتى إنها لتنبينا عن أدنى ما يحيط بنا من الأسباب ، بل إنها لتنبينا عن أحق الحق الذي لا نستطيع مدافقته ولو بالأوهام ، أهني الموت